ISSN: 2663-5798 || Arab Journal for Scientific Publishing

الإصدار السابع – العدد سبعون
تاريخ الإصدار: 2 – آب – 2024م
www.ajsp.net

"دراسة في سيرة جراح الأندلس أبو القاسم الزهراوي وتأصيل موروثه الفكري"

"الوجيز لمن تاه في التفنيد"

إعداد الباحث:

باسل مصطفى حاتم

دبي– الامارات العربية المتحدة

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
ISSN: 2663-5798 || Arab Journal for Scientific Publishing
الإصدار السابع – العدد سبعون
تاريخ الإصدار: 2 – آب – 2024م
www.ajsp.net

ملخص البحث:

ما زالت شخصية جراح الأندلس أبي القاسم الزهراوي ملهمة لكل البشرية, و ما زال مؤلفه الشهير (التصريف لمن عجز عن التأليف) حجة على مر العصور تثبت علو كعب الحضارة الإسلامية بشكل عام و الأندلسية بشكل خاص في إثراء المنتوج الفكري للبشرية عامة و في العلوم الطبية خاصة. إلا أن السيرة الشخصية للزهراوي فاتتها أقلام كُتاب السير و التراجم من التفنيد والإسهاب, و حتى من الذين واكبوا حياته أو ممن أرخوا للقرن الخامس الهجري, و بقيت هذه السيرة عبارة عن نثرات أوردتها الكتب بسطور قليلات, شابها الكثير من المبالغة و التاويل حيناً, و من الحشو دون مراجع راسخة حيناً آخر. بل إنها فتحت المجال لبعض كتاب الغرب للتدليس على أصول الشخصية العربية القحة, وإلى نسب معارفه و ابتكاراته إلى غيره في ما تلى من القرون.

الكلمات الدالة: أبو القاسم الزهراوي, العلوم الطبية في الحضارة الأندلسية, عصر الخلافة الأموية في الاندلس, مدينة الزهراء.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تبيان ما يلي:

- جمع القليل المتناثرعن شخصية أبو القاسم الزهراوي و سيرته و تفنيدها في ضوء ما تيسر من الحقائق الملموسة و تصويب ما بدا خطأه و تأييد ما بدا صوابه.
- حصر مؤلفات الزهراوي من الكتب و المعارف.
- تأصيل الموروث الفكري للزهراوي و حصر إبداعاته و ابتكاراته في المجال الطبي.
- محاولة استشفاف الأسباب وراء إغفال كتب التراجم لسيرة الزهراوي من مؤرخي القرن الرابع و الخامس الهجري.

تسلسل البحث:

1- نظرة عامة عن تاريخ الحقبة الإسلامية في الأندلس من منظور عدة كتاب ارخوا لهذه الفترة. يراعى فيها مرور سريع على أهم التواريخ التي واكبت بذرة الحضارة الإسلامية من الفتح, مروراً بعصر الولاة و وصولاً للتربع الأموي على سدة الحكم في شبه الجزيرة الايبرية.

2- تسليط الضوء على المناخ السياسي و الفكري و الاجتماعي الذي رافق مولد الزهراوي و التي تتمثل بتوصيف البيئة القرطبية الحاضنة. خاصين بالذكر سيرة الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي يعتبر بنظر كثير من المؤرخين عراب الرخاء الأندلسي في القرن الرابع الهجري, بالإضافة الى من خلفه من أولاده و أحفاده, وصولاً لحكم بني عامر, مع التعريج على تاريخ مدينة الزهراء مسقط رأس أبي القاسم.

3- ولادة و حياة أبو القاسم الزهراوي و حتى مماته بتجميع المبعثرات من كتب السير و التراجم و تفنيد صحيحها و إسقاط مغلوطها و خاصة من كتابات القرنين الرابع و الخامس الهجري, مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار للدور المهم لمؤلفات الغرب خلال نفس الفترة و ما تلاها.

4- تفنيد مؤلفاته و تلاميذه, و إلقاء الضوء على تاثير أبحاث أبو القاسم الزهراوي الطبية في الفكر الإنساني.

ISSN: 2663-5798 || Arab Journal for Scientific Publishing
الإصدار السابع – العدد سبعون
تاريخ الإصدار: 2 – آب – 2024م
www.ajsp.net

مقدمة:

كانت ولادة الحضارة الإسلامية في الأندلس نقطة تحول في تاريخ أوربا و الشمال الافريقي استمرت لعدة قرون. أسهمت تلك الحقبة بنقل تراث فكري عالي الطراز في شتى أنواع العلوم مستفيدة من الرخاء الاقتصادي الذي عايشته شبه الجزيرة الايبرية لفترة طويلة من الحكم الإسلامي, و التي أسهمت في بناء عدة مراكز متحضرة مثل قرطبة و غرناطة و إشبيلية, أخرجت العيدد من الهامات العلمية.

الدولة الأموية و بداية الفتح الاندلسي

كان التوسع الأموي في بلاد الأندلس على يد موسى بن نصير سنة 86 هجرية /705 ميلادية نتيجة واقعية لاستقرار الأمن و إحكام السيطرة على الشمال الإفريقي الذي كان موطناً للقبائل الأمازيغية (السرجاني, 2011; عنان, 1997). فقد شرع ابن النصير بعد استتباب الشروط الموضوعية للفتح التي أرساها منذ توليه حكم شمال افريقيا عام 82 هجرية, إلى توجيه طارق بن زياد في عملية عسكرية محكمة, قام خلالها بتأمين الجزر الواصلة بالجزيرة الايبرية و الشمال الافريقي, وإرسال السرايا لاستطلاع عتبات الأندلس, وهو ما ساهم في الإنزال الآمن لأول جيش مسلم عام 92 هجرية, و هو ما فتح الباب لاحقاً لاقتحام سريع لمساحات واسعة من القسم الجنوبي للجزيرة الاندلسية الذي يعرف بالجزيرة الخضراء, وتحقيق انتصارات سريعة على بعض الحاميات, تمهيداً لأهم انتصار للمسلمين على ملك القوط (لذريق) في معركة وادي برباط يوم 28 رمضان 92 هجرية. إن هذه المعركة كانت فاصلة من حيث أهميتها الاستراتيجية لأنها فتحت الطريق مشرعاً لتوغل الجيوش الإسلامية بسلاسة في الأراضي الأندلسية و إسقاط العيديد من الحصون القوطية, و التي انتهت بالتهام جزء كبير من شبه الجزيرة الايبيرية, و ليبدأ عصر جديد من تاريخ الأندلس سمي بعصر الولاة (المقري التلمساني, 1631; السرجاني, 2011; عنان, 1997).

أحقاب الوجود الإسلامي في الأندلس

1- عصر الولاة : تمتد هذه الحقبة من انتهاء فتح الاندلس عام 95 هجرية/ 714 ميلادية, و استمرت لاثنين وأربعين عاماً. و سميت بهذا الاسم لأن كل الولاة الذي عينوا كانوا بالتنصيب من قبل الخليفة الأموي و من مقر إدارتهم السياسية في دمشق. و يقسم المؤرخون هذه الحقبة إلى مرحلتين, الأولى اتسمت بنخبة رفيعة من الولاة الذين نهجوا أسلوب التوسع و إرساء قواعد الدولة, متسمة بمعارك وفتوحات مستمرة وصلت أواسط فرنسا. ابتدأ هذه الفترة عبد العريز بن موسى بن نصير سنة 97 هجرية/ 716 ميلادية, وانتهت بحكم عقبة بن الحجاج السلولي سنة 123 هجرية/ 741 ميلادية. أما الفترة الثانية و التي اتسمت بالضعف نتيجة عدة عوامل أهمها ضعف شخصية الولاة و تغلغل الخوارج و النزاعات القبلية التي نهشت بالمكونات الأساسية للمجتمع الإسلامي الأندلسي, و أهمها الصراع بين القيسية و اليمانية و صراعات البربر و العرب. وابتدأ حكم هذه الفترة عبد الملك بن قطن الفهري سنة 123 هجرية/ 742 ميلادي, و انتهت بعهد يوسف بن عبد الرحمن الفهري عام 138 هجرية/755 ميلادية, الذي أسقطه عبد الرحمن الداخل (السرجاني, 2011; عنان, 1997)

2- عصر الإمارة الأموية: تمثلت بسيطرة عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل, و الذي استطاع الإفلات من قبضة العباسيين الذين أطاحوا بالخلافة الأموية هارباً من الشام فمصر فبرقة بليبيا فالقيروان, و منها نفذ إلى الأندلس. حيث استطاع هناك و بحنكة سياسية و عسكرية فذة من الإطاحة بآخر ولاة الأندلس. استمر حكم الأمويين في أولاد الداخل و هم هشام بن عبد الرحمن الداخل فالحكم

بن هشام و انتهت بعبد الرحمن بن الحكم و الملقب بعبد الرحمن الأوسط عام 238 هجرية/ 825 ميلادية . تبعتها مرحلة الضعف في أولاد عبد الرحمن الأوسط و أحفاده و التي انتهت عام 300 هجرية/ 913 ميلادية (السرجاني, 2011; عنان, 1997)

3- عصر الخلافة الأموية: تمثلت باعتلاء عبد الرحمن الناصر (الثالث) للحكم و إعلانه الخلافة في الأندلس نداً للخليفة العباسي في بغداد. و كانت بيعته عام 300 هجرية/ 912 ميلادية. و التي استمرت حتى سيطرة الحاجب المنصور على الحكم عام 366 هجرية/ 976 ميلادية بالوصاية على الخليفة الشرعي هشام بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن. استمرت هذه الفترة حتى سقوط حكم العامريين من خلال انقلاب محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدي عام 399 هجرية/ 1009 ميلادية (السرجاني, 2011; عنان, 1997).

4- عصر ملوك الطوائف: تمثل مرحلة قاتمة من الحقبة الإسلامية الأندلسية , حيث تفككت الدولة الى عدة دويلات متناحرة تكيد الدسائس بين بعضها و تتآمر مع الإمارات المسيحية المحيطة بالأندلس.و قد استمرت هذه الحقبة لأقل من قرن, انقسمت خلالها شبه الجزيرة الأيبرية الى سبع دويلات, سميت بأسماء القبائل المسيطرة عليها وهن : بنو عباد, بنو زيري, بنو جهور , بنو الأفطس, بنو ذو النون, بنو عامر , بنو هود. انتهت هذه الحقبة بدخول جيوش المرابطين من شمال افريقيا بقيادة يوسف بن تاشفين, بعد أن حثه المشايخ و الناس على إنهاء الدولة الممزقة في الأندلس و إلحاقها بدولة المرابطين و تم له ذلك عام 483 هجرية/ 1090 ميلادي(السرجاني, 2011; عنان, 1997).

المناخ السياسي بالأندلس خلال القرن الرابع الهجري

يمكن أن نعتبر الزهراوي محظوظاً بأن يكون ممن عاصروا هذه الفترة الذهبية من الحكم الأموي للأندلس, و التي ترافقت مع إعلان الخلافة و أخذ البيعة لعبد الرحمن الناصر , و ما تلاها من توسعات و إخماد للثورات و الفتن الداخلية, و من الأخطار المحدقة من إمارات الشمال الصليبية. كل ذلك أرسى مناخاً داخلياً مستقراً وأعطى دفعةً حضاريةً حثيثةً, كانت محركاً للنهضة الفكرية التي تمتع بها القرن الرابع الهجري.

تسلم أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر الحكم عام 300 هجرية عن عمر ثلاثة و عشرين ربيعاً, خلفاً لجده الأميرعبد الله بن محمد. كان الناصر الذي عاش يتيماً لأن عمه المطرف قتل أباه قبل ولادته بعدة أسابيع, فنشأ في كنف جده الذي أحسن تربيته و تنشأته. واستطاع هذا الخليفة الفذ خلال فترة وجيزة إدراك مكامن الضعف الذي أصاب مفاصل الدولة. فعمل على إحداث تغييرات جذرية في بنية الطبقة السياسية من الوزراء و المستشارين, و وجه السرايا لإخماد الفتن في كل الاتجاهات لإخضاع الولايات التي مزقتها الثورات. حيث يشير المؤرخون بأن حجم المناطق التي كانت تخضع للخليفة الأموي لا تتعدى قرطبة واشبيلية, وهي تكافئ فقط عشر مساحة الأندلس. بالإضافة إلى حملاته المتكررة على الشمال و التي مكنته من درء الخطر المحدق من قبل الإمارات الصليبية (عنان, 1997). استمر الخليفة الناصر في هذا الكفاح المضني إلى أن دانت له الأندلس بعد ستة عشر عاماً من الحملات و الغزوات (السرجاني, 2011), لم يتوانى فيها أيضاً عن فتح جبهة مع الشمال الافريقي بغرض تأمين الأندلس من مطامع الدولة الفاطمية (العبيدية) التي كانت مصدر للقلائل منذ تواجدها في المنطقة المذكورة.

إن هذه الفترة الزاخرة بالأحداث التي كان للخليفة الناصر دور كبير في خط معالمها, جعلت قرطبة درة الأندلس و مركزاً لثقل حضاري و فكري عريق نتج عن بسط نفوذ الدولة بشكل فعال و راسخ حتى لدى الأعداء التقليدين من إمارات تنوي التفرد بالسلطة أو ممالك

الشمال النصرانية. حيث شهدت المدينة تطوراً قل نظيره, و الذي انعكس في الحركة العمرانية و الفكرية في مختلف أنواع العلوم (عنان, 1997).

توفي الخليفة الناصر عام 961ميلادية/ 350 هجرية, ليخلفه ابنه الحكم المستنصر و هو ابن سبعة عشر عاماً, ممسكاً بدولة متراصة الأركان و مستقرة الأمن, و ذلك لم ينفي استمراره على نهج أبيه في حماية الحدود الشمالية للأندلس من الإمارات الصليبية. و استطاع الحد من خطر الدولة العبيدية في الشمال الافريقي. و على الصعيد الداخلي أطلق حركة علمية نهضوية غير مسبوقة, حيث شاع العلم و ازدهرت المكتبات و المراكز التعليمية و دور النسخ.

دامت خلافة الحكم المستنصر قرابة ستة عشر عاماً حيث توفي عام 366 هجرية/ 976 ميلادية, ليخلفه ابنه هشام المؤيد الذي كان غلاماً صغيراً. ما لبث أن وقع هذا الخليفة الصغير ضمن حزمة متشابكة من المؤامرات و التحزبات داخل البلاط الأموي, كان أقطابها الصقالبة و البربر و الأسرة الأموية. و هذا الصراع آل إلى بروز شخصيات عديدة أدرات دفة التنافس الداخلي و لكن أهمها هو محمد بن أبي عامر الذي كنى نفسه بالحاجب المنصور, والذي كانت قد تقلد مناصب عديدة منذ عهد الناصر, و استطاع بحنكة أن يتغلب على كل المناوئين للحكم و يسيطر على وصاية الخلفية الصغير هشام المؤيد, و ليبدأ العصر الذي سماه المؤرخون بحكم العامريين. و شهدت الاندلس خلال فترة حكمه رخاء ملحوظاً, و استمر في غزاوته شمالاً حتى وفاته عام 392 هجرية. و هو الذي قد كان قد عهد بالحجابة لابنه عبد الملك الذي استمر في نهج أبيه حتى وفاته عام 399 هجرية. ليخلفه أخوه عبد الرحمن بن المنصور الذي أرغم الخليفة هشام المؤيد على تعيينه ولياً للعهد في سابقة غير مشهودة في التاريخ. ثم تؤول الأحداث إلى استياء الناس من هذه السلطة الضعيفة و الخليفة الهزيل و تسلط عبد الرحمن بن المنصور الذي عرف بفسقه و مجونه, لينقلب العامة على القصر و يخلعوا الخليفة و يعينوا محمد بن هشام و هو من أحفاد الناصر الذي قام بقتل عبد الرحمن بن المنصور(السرجاني, 2011; عنان, 1997).

تاريخ مدينة الزهراء

إن من أحد أهم مظاهر الرخاء العمراني الذي عاصر حكم الخليفة الناصر هو شروعه ببناء مدينة الزهراء لتكون حاضرة فكرية و إدارية للحكم, و هي تكافئ إنشاء العواصم الإدارية في وقتنا الراهن. أجمعت أغلب كتب التاريخ على ان العام 325 هجرية/ 936 ميلادية هو التاريخ الذي شُرِع فيه بإنشاء هذه المدينة (ابن حوقل, 1873; ابن عذاري المراكشي, 1983). و راح الدكتور عنان(1997) إلى تحديد شهر محرم من العام الهجري المذكور. حيث بنيت المدينة على سفح جبل العروس أو ما أطلق عليه ابن حوقل (1873) بجبل بطلش. و تجدر الإشارة إلى أن بعض المراجع التاريخية كانت تعد الزهراء كإحدى ضواحي قرطبة البعيدة, و هو من وجهة النظر الجغرافية لحجم العمران في تلك الحقبة يعتبر منطقيا, نظراً لأن المسافة بين مركز المدينتين لا يتجاوز سبعة كيلومترات. و هذا يتماشى مع النسق الهندسي لإعمار المدن الحديثة, على اعتبار أن قرطبة كانت نقطة الاستقطاب السياسي و الفكري و الاجتماعي. و كان من غير المنطقي إنشاء عاصمة إدارية تبتعد عن هذا المركز الحضري المهم.

ISSN: 2663-5798 || Arab Journal for Scientific Publishing

الإصدار السابع – العدد سبعون
تاريخ الإصدار: 2 – آب – 2024م
www.ajsp.net

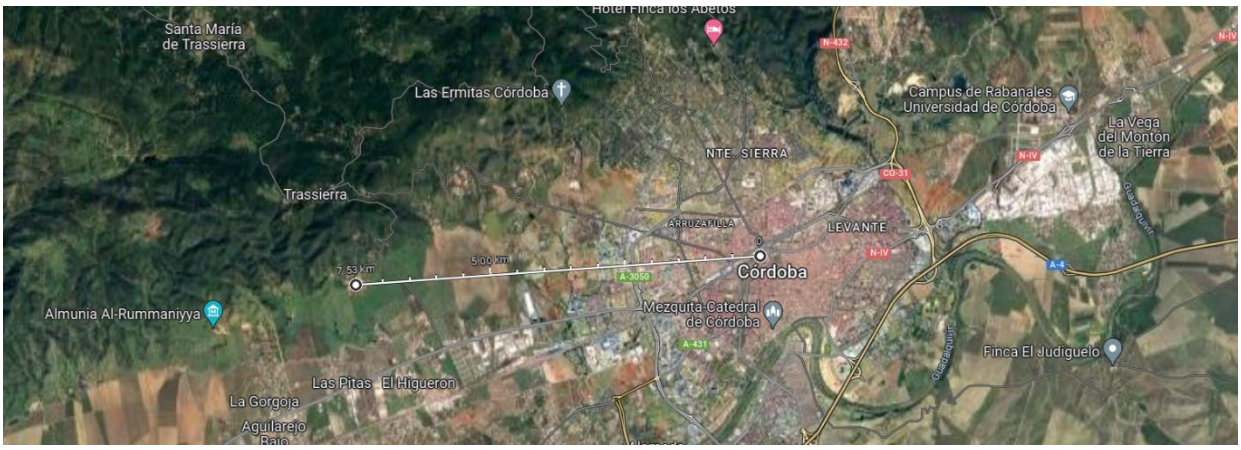

صورة توضيحية 1المسافة بين مركز مدينة قرطبة و مدينة الزهراء (صورة من خرائط غوغل)

تذكر بعض الروايات أن أصل التسمية كان بناء على طلب من إحدى محظيات الخليفة الناصر و اسمها الزهراء, حيث كان قد خصص مبلغاً كبيراً من المال لافتداء الأسرى المسلمين, و لكن لم يجد أحداً ليفتديه, فأشار بتحويل تلك الأموال للشروع ببناء المدينة. و تبدو هذه الرواية غير منطقية لأن الفكر الاستراتيجي لبناء مثل هذه المدينة أكبر من أن يتم إثارتها بمثل هذه الروايات الساذجة, و هو ما ذهب إليه الدكتور عنان (1997)الذي أرجعه إلى بواعث الحكم و السياسة و عرض فخامة الملك.

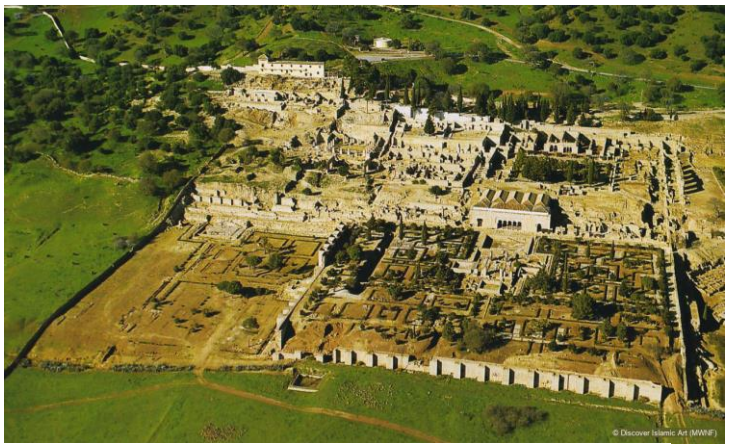

صورة توضيحية 2 أطلال مدينة الزهراء

تم تكليف ولي العهد الحكم بن عبد الرحمن للإشراف على بناء هذه المدينة التي أشارت الرويات التاريخية إلى كم الابداع العمراني و إلى حجم الخبرات الهندسية التي سيقت لبناءها و لإثراء فخامتها و رفعتها (ابن حوقل, 1873; الشريف الادريسي, 1988; المقري التلمساني, 1631). و ذُكرت الأرقام التي أُنفقت في سبيل إنشاءها, و الطبقات التي رُتبت للحرس و الخدم و طبقات للوزراء و رؤوس الحكم, ثم يتلوها قصر الخليفة المنيف (ابن الخطيب, 2003; ابن عذاري المراكشي, 1983). استمر العمل في بناء الزهراء طوال حكم الناصر, و امتد في عهد الحكم المستنصر بمجموع أربعين سنة من عمر الخليفتين (السرجاني, 2011).

لم تلبث الزهراء لفترة طويلة كقاعدة للحكم, فما إن توفي الحكم المستنصرعام 366 هجرية, حتى انتقل الحكم فعلياً الى الحاجب المنصور, الذي قام ببناء مركز إداري جديد على نهر الوادي الكبير و سماها الزهراة. حيث خط بناءها و عمرانها في سنتين (ابن عذاري المراكشي,

1983),و نقل إليها دوائر الدولة و دوواينها و أموالها, لينطفئ بريق الزهراء و لتبقى خلال العقود التي تلتها مجرد مكان إقامة للملك المحجور هشام المؤيد (عنان, 1997, ص 440).

كانت نهاية مدينة الزهراء مرتبطة بانتهاء الحكم الأموي و العامري معاً, حيث انفرط عقد الدولة و أصبحت فريسة للمؤمرات و الثورات و الفتن. ففي عام 401 هجرية 1010 ميلادية, زحفت قوات البربر على قرطبة بقيادة زعيم الثورة الأموية سليمان المستعين بهدف القضاء على هشام المؤيد و انتزاع حكمه. و في طريقهم إلى قرطبة, أغاروا على الزهراء و استباحوا دورها و قصورها, و لم يتبق منها إلا أطلال دارسة و ليندثر اسمها في التاريخ الأندلسي (عنان, 1997, ص 440)

جراح الأندلس أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي

يمكن أن نعتبر الحقبة التي عاشها الزهراوي من الحقب الذهبية التي رافقت مسيرته المهنية كما وضحت السطور أعلاه, و التي استمرت خلال حكم عبد الرحمن الناصر و ابنه الحكم المستنصر و ولده المؤيد, و خلال حكم العامريين. و هي فترات تميزت بالرخاء و السياسي و الاقتصادي وألهمت ثورة فكرية كان مركزها قرطبة و احتضنتها الزهراء بثقلها السياسي و العلمي, و التي منها كانت ولادة جراح الأندلس أبي القاسم الزهراوي.

نسبه:

ينتسب الزهراوي لمدينته التي ولد بها, و يكنى بأبي القاسم خلف بن عباس. اما والده فلا يعرف ذكر له في المراجع التاريخية. و حتى أن هذه الدراسة لم تصل إلى دليل جازم بمنزلة أبيه. إلا ان بعض المصادر ذكرت قرب والده من البلاط الأموي. و أما نسبه الأنصاري, فقد ذكر في المخطوطات المنسوخة لكتاب التصريف من خلال التعريف بمؤلف الكتاب و عليه تم الاستدلال من قبل النسابة, أن أصله من المدينة المنورة و أن والديه قدموا مع الحملة الإسلامية الفاتحة للأندلس و استقروا بقرطبة. تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة لم تجد ما يؤيد ما قيل عن نسبه الاسباني و التي أوردها رامن (2006). أما في ما يتعلق ببعض المراجع و المخطوطات التي ذكرت اسم أبيه ب (عياش) بدلا من عباس, فقد ثبت خطأها بالإجماع على انها عائدة للخطأ النسخي سهواً)حمارنة &سونيديكر (,1963. أضف إلى أن أهم مرجع لتثبيت اسم والده مستقى مما خطه ابن حزم في رسائله, و هو الذي عايش الرجل و عرفه شخصاً و علماً (دجاني وآخرون, 2013).

والد الزهراوي عباس الأنصاري

لم تورد كتب السيرة أي ذكر تفصيلي لوالدي الزهراوي, إلا أن بعض الكتب أشارت إلى أن والده كان من الأوساط المقربة للحكم كما جاء إشارةً في مقالته السابعة عشر من كتاب التصريف(كعدان, a1999, ص 19). و عليه نرجح تصنيفه من أولي المراتب الثانية أو الثالثة في البلاط. دليل آخر اهتدت إليه هذه الدراسة مستقى من قائمة الأعيان و علية القوم الذين حضروا بيعة هشام المؤيد في حياة أبيه الحكم المستنصر عام 366 هجرية و التي نقلها ابن الخطيب نقلا عن ابن حيان (ابن الخطيب, 2003, ص 55), يورد الكتاب قائمة كاملة بأسماء الشخصيات و القادة و رؤوساء القبائل و القضاة و أهل العلم لأخذ بيعة ابنه عندما اشتد مرض الحكم المستنصر في قصر الزهراء, حيث يذكر نصاً حضور (أبو القاسم خلف بن البناء الأمي). لم يورد الكتاب أي توضيح لهذه الشخصية أو أية مراجع أخرى و لكنها تتفق مع النسق التاريخي المتبنى, و يبقي الباب مشرعاً للتساؤل, هل كانت هذه الشخصية هي الجراح الزهراوي نفسه؟ و

لماذا لقب والده بهذا الاسم؟ و هل يمكن أن نستدل من الكنية إلى أن والده هو ممن أوكلت إليهم مهمة الإشراف على بناء مدينة الزهراء؟ حيث أن الربط يشير بشكل واضح إلى أن الوالد لم يكن من المحترفين بالهندسة و الإلمام بهندسة القصور و المدن, و لكن يمكن أن نخففها إلى مندوب البلاط للإشراف على تطور البنيان و العمران. لا سيما أن ولادة الزهراوي في مدينة الزهراء تدل و بترجيح واضح أن والديه كانوا من سكان الزهراء, و لا يمكن ان ان تكون موطناً للوزراء و الحجاب و أولي الامر بحكم كونها كانت قيد البناء. و عليه من عاش فيها في فترة ولادة الزهراوي (أي والده) هم ممن أشرفوا أو عملوا في البناء, و بقي صيته و حظوته عند أولي الامر لمهامهم الجليلية في بناء درة المدن في وقتها.

مولده

اقترحت العديد الدراسات أن مولده بعد عام 325هجرية/ 936 ميلادية من دون تحديد مجال لدقة المقاربة, في حين ذهب أكثر المؤرخين للتأكيد بأنها من العام نفسه. في هذا السياق يمكن أن نضيف مقاربة أخرى تأخذ بعين الإعتبار تاريخ وفاة الزهراوي و تاريخ انتهاء مجلده التصريف, حيث نقرأ في بعض المخطوطات تعليقه في مقدمة المجلد بأنه خلاصة خمسين عاماً من البحث و الممارسة, و على اعتبار دقة تاريخ الإنتهاء من كتابه و التي تشير إلى العام 1000 ميلادية, فهذا يتفق مع النسق الزمني الذي يفترض بدايه تعلمه لحرفة الطب و هو في الرابعة عشر ربيعاً, و بهذا تنقطع الظنة بتأخر ولادته إلى ما بعد 936 ميلادية بسنوات عديدة. على اعتبار أن النظام التعليمي في شائع الأقاليم الإسلامية كان يبتدئ بالعلوم الشرعية و الفقه منذ عمر الخامسة إلى السابعة, ومن ثم يتفرع الدارسون على حلقات العلم في صنوف العلم الأخرى كالفلك و الطب و الشرع و الرياضيات و غيرها. و عليه لو افترضنا أن الولادة لم تتم في عام 936ميلادية, فإن المجال الزمني لا يمكن أن يتعداه ببضع سنوات, أي أنها تتراوح في المجال بين 936–938 ميلادية. وهي بالتأكيد تجزم بأنه لا يمكن أن تكون قبلها لأن أساس الزهراء كمدينة لم يكن له وجود قبل أن يأمر الناصر بالشروع ببناءها, و بالتالي محلة إقامة والدي الزهراوي بالزهراء كانت نتيجة للحدث التاريخي المرافق للشروع بعملية إنشاء هذه المدينة كضاحية من قرطبة. أضف إلى ذلك أن الدكتور عبد العظيم الديب (2012, ص 55) فند كل التواريخ المتضاربة لولادة الزهراوي الواردة في كتب المؤرخين الأخرى و توصل إلى قناعة بحدوث الولادة عام 936 ميلادية أو بعدها بقليل.

حياته و نشأته

إن من المحزن أن تصطدم أيضاً بشح ما كتب عن حياة و نشأة أبو القاسم الزهراوي, فكأن المؤرخين سهوا عن تسجيل و تأصيل حياته و ما مر به, فاحتوت السيرة شذرات لا تعدو إلا تلميحات أو سرديات يمكن دحض ضعفها بسهولة, بالإضافة إلى كم التناقض في الروايات و التفاصيل. على كل حال, بعض الإشارات عن بدايات الزهراوي يمكن تلخيصها بأنها كانت نشأة دينية, حيث تعلم فيها القراءة و الكتابة و علوم الدين و الفقه, و من ثم انتقل الى قرطبة, و هناك انخرط في تعلم علوم الطب على يد أحد الأطباء حتى برع بها)الناصر &التويجري(1993 , و فاق عدداً كبيراً من الأسماء اللامعة في تلك الفترة, كالاشبوني و خالد بن يزيد بن رومان و حامد بن سمجون و سليمان بن جلجل, و من ثم انخرط في العمل الميداني بمشافي قرطبة (السرجاني, 2009). بدأ الزهراوي يتعمق في علوم الطب مستفيداً من الخبرات و العلوم المتراكمة, بالإضافة إلى كون قرطبة محجاً لأهل الأندلس و غيرها من الأقطار, فقرطبة الذاخرة بأعظم الحلل المدنية في تلك الفترة بخمسين مشفى و سبعين مكتبة تعدت كتبها 400 ألف كتاب, بالإضافة الى مدارسها العريقة التي كانت تنافس مدارس الطب في بغداد (زكور, 2006), كل هذا ساهم في شحذ مهاراته و مخالطته للعديد من الحالات الطبية ما شاع منها و ما ندر.)الناصر &التويجري, 1993, ص 49).

إحدى النقاط العالقة التي فشلت معظم المصادر المتوفرة على توثيقها و هي في ما يتعلق بخدمة أبي القاسم لدى حكام الأندلس. لا شك أن الزهراوي كانوا ممن افنوا حياتهم في العمل الحثيث في المشافي, منهمكاً في معالجة مرضاه و بعيداً عن حياة الترف و البذخ, إلا أن حجم الإسنادات التي وجدناها في كتب التاريخ و التي تؤكد عمله في البلاطات على تناقضها يدفعنا للبحث في هذه التفصيلة. وعليه, تحاول هذه الدراسة تفنيد بعضها و رفض المتناقض منها و تأييد ما ثبت اعتماداً على المرجع التاريخي أو من باب التحليل المنطقي.

الحكام الذين أشار كتاب السيرة بخدمة الزهراوي في بلاطهم و هم حسب الترتيب الزمني:

- عبد الرحمن الثالث (الناصر) ت 350 هجرية 961 ميلادية
- الحكم المستنصر بن عبد الرحمن ت 976 ميلادية 366 هجرية
- فترة حكم العامريين و مرحلة الفتن و الثورات حتى عام 400 هجرية –1010 ميلادية
- هشام المؤيد بن الحكم ت 404 هجرية 1013 ميلادية

أشارت عدة مصادر تاريخية أن الزهراوي كان قد عين طبيباً في بلاط الناصر)الناصر &التويجري(1993 , , و هنا يمكن أن نجزم بسهولة خطأ كل هذه الاسقاطات لعدم وجود اتساق زمني بين مولده و نشأته بناء على ما تقدم من تفنيد لتاريخ مولده, و عليه فإن عمر الزهراوي يوم وفاة الناصر تقدر ب 14 عاماً و هو غير منطقي لاعتباره طبيب بلاط.

و بالمقابل فإن عدداً من الأبحاث أشارت إلى خدمة الزهراوي في بلاط الحكم المستنصر, و هو ما ذهب إليه البعض (أبو خليل, 2004; زكور, 2006) و هو من حيث النسق الزمني ممكن التقبل مع العلم أن كل المراجع لم تقدم دليلاً واضحاً لهذا الإسناد التاريخي , بل عجزنا أن نجد ما يشير إلى ذلك من كتب التراجم التي عايشت تلك الحقبة أو ممن تبعهم. أما دحض هذا الإسناد فيمكن من المنطلقين التاليين:

- إن من المعلوم أن الطبيب الخاص بالحكم المستنصرهو الطبيب اليهودي حسداي بن شبروط, و قد بقي متبوءً هذا المنصب لفترة طويلة من حكم المستنصر (عنان, 1997, ص 506). أضف إلى ذلك أن أهم موثق للحركة النهضوية في العلوم الطبية داخل بلاط المستنصر يمكن استقراؤها من مؤلف ابن جلجل (1955) الذي لم يورد الزهراوي أو يشر إليه و الذي يمكن أن نعزوه لصغر عمره و عدم بروز اسمه(السباعي, 1995).
- إن الزهراوي كان قد خط مقدمة كتابه التصريف موجها كلماته لتلاميذه, و هو ما يضيف صبغة إلى شخصية الزهراوي كرجل مكد, صرف جل وقته في العمل الميداني و بعيداً عن النمط المرفه للحياة. و هو ما يؤكده الدكتوركعدان (1999, ص 20) مستدلاً إلى أن الزهراوي لم يكن من أهل الثراء و أن موروثه لأبناءه يتجسد في علومه فقط, ناهيك أنه لم يهدي أي من كتاباته لأحد هؤلاء الخلفاء.

و مما سبق يمكن أن نطور مقاربة أكثر تقبلاً كما يلي:أن أغلب الخلفاء و الأمراء كانوا يختارون صفوة الصفوة لتبوء هذا المنصب, و هم من الممارسين المحنكين و الذين أمضوا سنوات طويلة في ممارسة المهنة, و هو من هذا الباب لا ينطبق على الزهراوي نظراً لصغر عمره الذي لا يتجاوز العشرين خلال المرحلة الأولى من حكم المستنصر التي دامت ستة عشر عاماً. و لكن يمكن أن

نستقرء بأنه مارس المهنة ضمن فريق طبي خاص بالبلاط بصفة مساعد أو ما إلى ذلك. و هو أيضاً إسقاط ينطبق فقط على مرحلة متقدمة من حكم المستنصر مفترضين أن الزهراوي حينها قد تجاوز منتصف العقد الثاني من العمر.

أما خدمته لهشام المؤيد, فهي افتراضات أسقطها بعض المؤرخون لإنها لم تكن مبينية على أدلة مثبتة)حمارنة &سونيديكر ;1963 , كعدان(1999 ., ولكن يمكننا القول بأن الزهراوي كان معروفاً لأهل البلاط كرجل علم و ممن ورثوا حظوة عند الخلفاء الأمويين, مع كوننا متيقنين أيضاً أن الزهراوي لم يكونوا ممن واظبوا القصور و جالسوا الأمراء و المتنفذين, كونه أشغل نفسه في ممارسة الطب ميدانياً. وهو ما برهنه الزهراوي في كتابه التصريف, عندما أهدى علمه لتلاميذه فقط, معللاً خبرته مما عاينه بأم عينيه خلال تجربة طويلة استمرت خمسين عاماً من الممارسة , و هو ما يؤيد ارتياحنا للعام 1000 ميلادية كتاريخ للإنتهاء من تأليف كتاب التصريف, و هي تضعنا في فترة أفول الدولة العامرية. و مما سبق, يمكننا أن نقول استنباطاً بأن الزهراوي خط مؤلفه في مدينة الزهراء و هو ممن عايشوا و ربما خدموا هشام المؤيد الذي كان يعيش معزولاً عن الحكم (السرجاني, 2011; عنان, 1997), تتقاذفه القوى السياسية التي تتحكم بقرطبة يميناً و شمالاً من العرب فالبربر فالصقالبة فالأمويين و غيرهم, و التي جعلته حبيس الزهراء حتى وفاته.

وفاته

تاريخ وفاة الزهراوي قد شابه الخلاف بين المؤرخين أيضاً, و ذلك مرده لشح الأدلة التاريخية و تضارب الروايات و التي وصل بعضها إلى تحديدها خلال القرنين السادس و السابع الهجري. قدم الدكتور الديب (2012) تأصيلاً شافياً وافياً لهذا التضارب, و قام بسرد كل الروايات و التواريخ المقترحة للوفاة, ومن ثم فندها بحكمة وافية و تسلسل منطقي, ليثبت خطأ جلها و ليحصر تاريخ الوفاة فيما بعد 400 هجرية.

و في سبيل الوصول إلى تاريخ أكثر موثوقية و دقة, وجب تفنيد المقترحين الأخيرين لتاريخ الوفاة, أولهما يصب في تحديدها ضمن الفترة بعد عام 400 هجرية بقليل, مستندين إلى ما ساقه الحميدي (2008, ص 303) و المتوفى عام 488 هجرية و هو من أهل قرطبة, و الذي يعتبر أقرب المؤرخين لحياة الزهراوي, و الذي حصر الوفاة ببعد الأربعمائة و قال فيه "أبو القاسم، من أهل الفضل والدين والعلم، وعلمه الذي لم يسبق فيه علم الطب، وله فيه كتاب كبير مشهور كثير الفائدة محذوف الفضول، سماه كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف ذكره أبو محمد علي بن أحمد وأثنى عليه، وقال :ولئن قلنا: إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه للقول والعمل في الطبائع والجبر لنصدقن. مات بالأندلس بعد الأربع مائة". فالنص واضح, و ما يفهم منه اقتراب الوفاة من هذا التاريخ, و هو يقتبس عما ذكره ابن حزم الاندلسي في كتابه فضائل أهل الاندلس و ذكر رجالاتها, و لنا وقفة عنده لاحقاً.

أما الفريق الثاني فقد ذهب إلى افتراض الوفاة عام 427 هجرية 1036ميلادية(البابانى, 1951, ص 427; الزركلي, 1986, ص 310; السرجاني, 2009, ص 203) , على أن هذه الدراسة لم تجد مصدراً يعزز هذه الفرضية من أي المصادر القريبة من عهد الزهراوي, لا بل نقول باستبعاد هذا التاريخ آخذين بعين الإعتبار مقاربة أخرى منطلقها تاريخ تأليف ابن حزم لرسائله في فضائل أهل الاندلس, و هو الذي أشاد بأبي القاسم الزهراوي و كتابه. حيث أن الرسائل كانت قد أُلِفت بطلب من يمن الدولة صاحب البونت أبي عبد الله محمد بن عبد الله الفهري, و هو الذي حكم بين عامي 421 – 434 هجرية. إلا أن المصادر التاريخية لا تسعفنا بتاريخ تكنيه بهذا اللقب الذي ذكره ابن حزم (نقصد بيمن الدولة) و إلا لكان تحديد التاريخ أيسر. على كل حال أشارت مصادر أخرى إلى ابن حزم أتم رسائله في عام 422 هجرية أو 422 هجرية, و بالتالي فهو ينفي قطعاً وفاة الزهراوي عام 427 هجرية.

مأخذ آخر يستدل به مما ساقه ابن حزم في توصيف الزهراوي في رسائله حيث يقول نصاً "وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، وقد أدركناه وشاهدناه، ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع، لنصدقن."(ابن حزم الأندلسي القرطبي, 1987, ص 185), و هنا نقف عند الكلمة (و قد أدركناه و شاهدناه) و ما هي دلالات المعنى. فهل القصد منها هو الشخص أو مؤلفاته؟ إن التمحيص الدقيق في المعنى اللغوي و دلالته يشير بشكل متقبل و عالي إلى أن فعل الإدراك و المشاهدة تتحمل معنى الشخص أو الشخص و كتابه معاً, و هي أيضاً تدل على اتساع المدة. و عليه فإن ابن حزم يشير إلى أن ملاقاته و معرفته و انتهاء الصلة بالشخص حين كتابة رسائله قد حدثت قبل وقت ليس باليسير, و هو في حالتنا يصل إلى عقد من الزمن و لا يمكن أن تكون بضع سنوات لو خمنا بصحة الوفاة عام 427 هجرية و أن ابن حزم ألف كتابه في حد أقصاه عام 434 هجرية.

أما أهم دليل راسخ في تحديد تاريخ الوفاة فهو ما ساقه المؤرخ الحسن بن محمد الوزان الملقب بليون الافريقي الذي حدد الوفاة عام 404 هجرية (كعدان, 1999), و الدراسة ترتاح لمثل هذا التأصيل على اعتبار أن الحسن الوزان كان من قلائل المؤرخين القريبين من عصر الزهراوي إلى حد ما, حيث توفي الوزان عام 1554 ميلادية, و هو الذي أتاحت سيرته المغامرة من الربط بين الحضارتين الأوربية و الإسلامية. و نرجح الظن أن تأكيده للتاريخ هنا كان بالإستناد على ما تيسر له من مصادر الايطاليين الذي نقلوا تاريخ الأندلس عن طريق نسخ كتب المسلمين أو البعثات العلمية التي ما فتئت تقبل على مراكز الحضارة الأندلسية.

تلاميذ الزهراوي

ذكرت كتب التراجم اثنين من تلاميذ الزهراوي الذين برعوا في مجالات عدة و هم:

ابن وافد (378 هجري– 467 هجري)

أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي المكنى بابن وافد بكسر الفاء, وهو من أهل طليطلية, وزير و من أشراف أهل الأندلس. كان ذو شأن في دولة ذي النون الشهيرة بطليطلية. رحل الى قرطبة و أخذ علم الطب عن الزهراوي و له كتاب في الفلاحة (زكور, 2006). عني عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس و أرسطوطاليس و غيرهم من الفلاسفة . كان ماهراً بعلم الأدوية المفردة حتى ضبط منها مَا لم يضبطه أحد في عصره و ألف فِيهَا كتاباً جَلِيلاً لَا نَظِير له, جمع فِيهِ مَا تضمن كتب ديسقوريدس و جالينوس. و له من الكتب كتاب الأدوية المفردة, الوساد فِي الطب, مجربات فِي الطب, تدقيق النظر فِي علل حاسة البصر, و كتاب المغيث (ابن أبي أصيبعة, 1965, ص 496).

ابن سميق (372 هجرية–451 هجرية):

يكنى بأبي عمر أحمد بن يحيى بن أحمد بن سميق بن محمد بن عمر بن واص بن حرب بن اليسر بن محمد بن علي. وذكر أن أصلهم من دمشق من إقليم الغدير. من أهل قرطبة و غادرها أيام الفتنة قاصدا طليطلة, فسكنها و من ثم ولي القضاء بطلبيرة فأحسن السيرة و العمل وكان من أهل النباهة واليقظة والمشاركة في عدة علوم. كان أديباً حليماً وقوراً، وكان قد نظر في الطب وطالع منه كثيراً وعني به، وكان من المجتهدين بالقرآن وعني بالحديث وكتبه وسماعه وروايته وجمعه. ، وكان كثير الالتزام لداره لا يخرج منه إلا لصلاةٍ أو لحاجةٍ. وكان يتناول شراء حوائجه بنفسه حتى البقل، ولا يخالط الناس، ولا يداخلهم و مات عن عن ثلاث و سبعين سنة و دفن بالقرق

(ابن بشكوال, 1989, ص 61). أما القرق فلم نجد لها أصلاً في خريطة الأندلس و ما وجدناه هو ناحية أبي القرق شمال بطليوس غرب قرطبة.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة تطرح تساؤلاً حول ما ذكر في كتاب الصلة لابن بشكوال, حيث يورد الكتاب في ذكر أبي القاسم الزهراوي فيقول نصاً " ولئن قلنا أنه لم يؤلف في الطب أجمع منه للقول والعمل في الطبائع لنصدقن. مات بالأندلس بعد الأربع مئة. وذكره ابن سميق في شيوخه."(ابن بشكوال, 1989, ص 162) . في حين أن ترجمة ابن سميق و في نفس الكتاب تذكر أبو القاسم الوهراني كأحد علماء الحديث الذين أخذ عنهم ابن سميق دون ذكر أبي القاسم الزهراوي. و هذا يتفق مع النسق المهني الذي تبناه ابن سميق لاحقاً و الذي عمل قاضياً و تبحر في علو الفقه و الحديث. و عليه نرجح أن ابن بشكوال قد جانبه الصواب و اختلط عليه بين أبي القاسم الزهراوي و أبي القاسم الوهراني, هذا و الله أعلم.

ذكرت بعض الدراسات ان أبا بكر يحيى بن أحمد المعروف بابن الخياط المتوفي عام 447 هجرية/ 1056 ميلادية, و أبا الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد الكرماني المتوفي عام 458 هجرية/ 1066 ميلادية كانوا من تلاميذ الزهراوي, و لكن لم تستطيع هذه الدراسة إثبات الصلة بينهم رغم اشتغالهم و براعتهم بعلم الطب و ارتباطهم الزماني بحقبة أبي القاسم الزهراوي.

النتاج الفكري للزهراوي

إن الموروث العلمي لأبي القاسم الزهراوي خلال حياته الحافلة قد وضعته بلا شك في مكانة فريدة في علوم الطب, لا ينازعه عليه إلا ثلة قليلة من العظام الذين أفرزتهم الحضارة الإسلامية كالرازي و ابن سينا و ابن النفيس وابن رشد, و لكنه يبقى من المتربعين على كرسي أعظم جراحي العرب المسلمين و بل حتى أستاذ الجراحة في العصور الوسطى و عصر النهضة الأوربية(السرجاني, 2009, ص 202). و يكفي أن ننسب ما قاله الدكتور ريجيرسيت في مؤتمر برلين عام 1929 بمناسبة ألف سنة على وفاة الزهراوي حيث قال " إنه من الخطأ الفاحش أن ينسب تقدم العلوم الطبية في بلاد الغرب إلى الأوربيين انفسهم, اذ أنه في الواقع المعروف أن كل وصفات الغربيين في علاجهم الأمراض المختلفة ترجع إلى كتاب أبو القاسم الزهراوي". بالإضافة الى المكانة التي أرساها الطبيب الفرنسي لوسيان لوكليرك و هو أحد المختصين في دراسة الزهراوي, مؤكداً ما ذهب إليه ركسيوس في القرن الخامس عشر ميلادي, و الذين عد الزهراوي أسمى تعبير عن علم الجراحة عند العرب و أن مؤلفاته من أهم المراجع في العصور الوسطى(كعدان, b1999, ص 23). و تكمن فرادة الزهراوي في امتهانه لمجال قل من سبقه إليه أو جاراه في الإفاضة فيه ألا وهو علم الجراحة. حيث أن التطبيب قبل ذلك اقتصر على علوم الأدوية و العقاقير بالإضافة الى التداخلات الجراحية البسيطة و الموروثة من الحضارات السابقة و أهمها اليونانية, و هو ما ارتكز عليه أغلب علماء الطب و حتى الزهراوي نفسه. ناهيك عن المكانة المرموقة التي اتخذتها الاندلس و قرطبة خاصة بمراكزها العلمية و التي أسهمت في تتلمذ الزهراوي على يد أبرع من عرفهم ذاك العصر بالإضافة الى الخبرة الواسعة التي أحاطها كون الأندلس محجاً لكل الحضارات المجاورة, و التي جعلته يطلع على أنواع شتى من الامراض و العلل.

المؤلفات:

هناك لبس كبير في عدد المؤلفات التي تركها الزهراوي, و هو من المحزنات في قصة هذا الرجل الذي اندثر من قصته الكثير. فقد ذهب كثير من المؤرخين إلى أن مؤلفات الزهراوي عديدة و متنوعة و لكن لم يصل منها إلا القليل, و الاستدلال على ذلك عائد إلى كتب التراجم الأولى القريبة من القرن الرابع الهجري, كابن حزم و الحميدي و الضبي وابن أبي أصيبعة و الصفدي الذين أوردا أن الزهراوي من أهل الدين و العلم و الفضل و أن له من التصنيفات الكثير, و هو يحمل معنى أن علمه ليس مقتصراً على الطب, بل يتعداه إلى علوم أخرى, و هو ما أوردته هذا الدراسة سابقا و ارتاحت اليه. أما من المؤرخين الحديثين فمنهم من يؤكد تنوع كتبه رغم عدم توفر الأدلة الملموسة (الديب, 2012), بينما نسب بعضهم للزهراوي مؤلفات أخرى كما ذهب الزركلي (1986, ص 310) و الطرابلسي(1990, ص 438) الذي سمى كتاب علوم الادوية و العقاقير المركبة و أسمائها بمختلف اللغات, و كتاباً في الاكيال و الموازين. و بالمحصلة تتفق الدراسة هنا مع ما أكده الدكتور كعدان(1999) الذي رأى أنه نظراً لغنى كتاب التصريف و تنوع محتواه الذي تجاوز ثلاثين مقالاً, و التي شملت تصنيفات عديدة في الادوية و العقاقير, فنقول أنه اختلط على البعض و ظنوها مؤلفات منفصلة للزهراوي, و لكنها لا تعدو كونها جزءاً من المقالة التاسعة والعشرين لكتاب التصريف.

لكن و في وقت لاحق و في نهايات القرن العشرين, ظهرت للعلن أحد المخطوطات العائدة لعائلة فيفون الجزائرية و هي من العائلات العريقة و المرموقة من مدينة قسنطينة, موقعة باسم ناسخها الشيخ الفقون محمد بن الحسن, و قد عنونها باسم كتاب ما يعرف به الأرض الجيدة للشيخ أبو القاسم الزهراوي و سنأتي على ذكرها ببعض التفصيل في السطور القادمة.

مما تتقدم فإن الدراسة ترتاح إلى ما أشار إليه الدكتور الديب (2012) بأننا جازمون بأن نتاج الزهراوي واسع و عريض و يشمل مجالات أخرى كالرياضيات و الفلسفة و الفلك بالإضافة إلى علوم الطب و الفلاحة. و لكن بالمقابل لا نأخذ إلا بالأدلة المتوفرة حالياً لنحصر نتاج الزهراوي في مؤلفين فقط و لعل سائر الأيام قد تطالعنا بما يزيد غلة الزهراوي من مؤلفات:

أ– كتاب التصريف لمن عجز التأليف: يعتبر هذا الكتاب من أجلّ الموروثات الإنسانية على مر العصور, و مرد ذلك عاملين اثنين: الأول يتعلق بغزارة النسخ المتوافرة منه, و ذلك نتيجة لشيوع ذكر المؤلف في الأقطار عامة عجمها قبل عربها, و تهافت الطلبة على نسخه و بمختلف اللغات, ومن ثم توارثه بين مختلف التيارات الفكرية في أوربا و المشرق العربي على مدار القرون التي تلت تأليفه. أم السبب الثاني فيعود إلى غنى المادة الفكرية التي تحتويها دفتا الكتاب و تنوعها و تشعبها, و هو ما أورده الزهراوي في مقدمة كتابه مخاطباً تلاميذه بأنه شامل لشتى المواضيع الطبية, حتى يمكن عده كمرجع لا غنى عنه لأي دارس و ممارس لحرفة الطب.

هناك بعض الإشارات التي تدل إلى أن الزهرواي كان قد أتم كتابه عام 1000 ميلادية(نقابة السياحة بقرطبة, 2013) و هو الدليل الوحيد الذي استقرت إليه هذا الدراسة, و لا نجد له تعارضاً مع النسق الزمني لحياة الزهراوي, فهو الذي أشار في مقدمة كتابه على أنها خلاصة خمسين عاماً من امتهان الطب, و التاريخ المقترح متسق على اعتبار أن الولادة حدثت عام 936 ميلادية أو بعدها بقليل كما أسلفنا سابقاً.

كان اطلاع الزهراوي على المؤلفات اليونانية والعربية في الطب والأغذية من المرتكزات خلال تأليفه كتابه, فهو يذكر أسماء أصحابها فيما ينقله ويشير إلى اسم الكتاب الذي رجع إليه, و من أهمهم جالينوس و أرمانيوس و أهرن و بولس الأجانيطي و سرجيس ابن الياس الرومي و سابور بن سهل و الكندي و يوحنا بن ماسويه و أبو بكر الرازي و ابن الجزار و ابن جلجل و مسيح بن الحكم الدمشقي و

حنين بن إسحاق و جبريل بن بختيشوع و اسحاق بن عمران وغيرهم. و من ثم راح يتوسع في مواضيعه و يضيف من خبرته وإبداعاته التي صقلتها السنين. قسم الزهراوي كتابه التصريف الى ثلاثين مقالاً لخصت حسب مقدمة كتابه جل معارفه و خبراته طوال خمسين عاما من امتهانه الطب. و هي تتوسع لتشمل الصيدلة و علم العقاقير مع الانتباه ان الزخم الأكبر لهذا الكتاب تركز في المقالة الثلاثين, وهي التي تختص بعلم الجراحة أو عمل اليد كما شاع تسميتها في ذاك العصر (خراط, 1984). و هذه المقالات هي كالآتي:

- **المقالة الأولى:** في الاستقصاءات و الأمزجة و تركيب الأدوية.
- **المقالة الثانية:** في تقاسيم الأمراض و علاماتها و الإشارة إلى علاجها.
- **المقالة الثالثة:** في صفات المعاجين القديمة التي تخمر و تدخر.
- **المقالة الرابعة:** في صناعة الترياقات و الأدوية المفردة في جميع السموم.
- **المقالة الخامسة:** في صفات الإيارجات القديمة والحديثة وادخارها وتخميرها.(و الإيارجات تُستعمَل لاستفراغ أخلاط البدن).
- **المقالة السادسة:** في صفات الأدوية المسهلة من الحبوب المرة المدبرة في جميع الأمراض.
- **المقالة السابعة:** في صفات أدوية القيء والحقن والفرزجات (المدخلات في الأعضاء التناسلية) والشيافات(أدويةُ العين التي على هيئة مساحيق) والفتل.
- **المقالة الثامنة:** في الأدوية المسهلة اللذيذة الطعم المألوفة المأمونة.
- **المقالة التاسعة:** في أدوية القلب من الشيافات وأدوية المسك وما أشبه ذلك.
- **المقالة العاشرة:** في صفات الإطريفلات(جنس نباتي يتبع الفصيلة الجنطيانية يضم نوعاً واحداً هو أطريفل الماء) و البنادق المسهلة.
- **المقالة الحادية عشرة:** في صفات الجوارشنات والكمونيات (أدوية المعدة و الهضم عذبة الطعم بعكس المعاجين) وما أشبه ذلك من المعاجين.
- **المقالة الثانية عشرة:** في أدوية الباه (الضعف الجنسي) و الأدوية المسمنة للأبدان والمهزلة والمدرة للبن (البِنُّ و هي طبقات الشحم)ونحو ذلك.
- **المقالة الثالثة عشرة:** في الأشربة والسكنجبينات (مخلوط الخل و العسل و أصلها فارسي) والربوب (ما صنع من مواد متخثرة).
- **المقالة الرابعة عشرة:** في البخاتج (العصائر المطبوخة بالسكر و أصلها فارسي) والمطبوخات والنقوعات المسهلة وغير المسهلة.
- **المقالة الخامسة عشرة:** في المربيات ومنافعها وحكمة ترتيبها وإدخارها.
- **المقالة السادسة عشرة:** في السفوفات(الأدوية التي على شكل بودرة) المسهلة وغير المسهلة.
- **المقالة السابعة عشرة:** في الأقراص المسهلة وغير المسهلة.

- المقالة الثامنة عشرة : في السعوطات (أي ما يستنشق بالانف) والقطورات والبخورات والدرورات والغراغر.
- المقالة التاسعة عشرة : في الطيب والزينة وصناعة الغوالي وما أشبهها.
- المقالة العشرون : في الأكحال والشيافات واللطوخات.
- المقالة الحادية والعشرون : في السنونات وأدوية الفم والحلق وما أشبه ذلك.
- المقالة الثانية والعشرون : في أدوية الصدر والسعال خاصة.
- المقالة الثالثة والعشرون : في الضمادات لجميع علل البدن من القرن (الرأس) إلى القدم
- المقالة الرابعة والعشرون : في صناعة المرهم النخلي وسائر المراهم لجالينوس وغيره.
- المقالة الخامسة والعشرون : في الأدهان ومنافعها وأحكام استخراجها.
- المقالة السادسة والعشرون : في أطعمة المرضى وكثير من الأصحاء مرتبة على الأمراض
- المقالة السابعة والعشرون : في طبائع الأدوية والأغذية وإصلاحها وقواها وخواصها.
- المقالة الثامنة والعشرون : في إصلاح الأدوية وحرق الأحجار المعدنية وما يتصرف في الطب من ذلك.
- المقالة التاسعة والعشرون: في تسمية العقاقير باختلاف اللغات وبدلها وأعمارها, وأعمار العقاقير المركبة وغيرها وشرح الأسماء المركبة الواقعة في كتب الطب والأكيال والأوزان.
- المقالة الثلاثون : في العمل باليد من الكي والشق والبط والجبر والخلع مشروحا مختصراً.

لا تسعفنا كتب التراجم عن عدد النسخ العربية التي استنسخت من الكتاب, إلا أننا متيقنون بأن كتاب التصريف كان معروفاً و قد ذكرها من اتصلوا بالزهراوي خلال تلك الحقبة و نعني بالتحديد الإمام ابن حزم في كتابه لفضائل اهل الاندلس, و الذي يشير النسق السردي إلى أنه تعرف على الزهراوي و احتك به و شاهد مؤلفه. إذ كان من المعروف أن كتاب التصريف كان حجة في زمانه و مرجعاً اصيلاً لدراسي الطب في تلك الفترة, مع افتقارنا للدليل عن عدم ذكره من قبل كتاب التراجم الذين عاصروه, و ليقتصر على ما ذكره ابن حزم و ليعاد ذكره في كتاب الحميدي (جذوة المقتبس) الذي كتب بعد عام 455 هجرية و هي سنة انتقال الحميدي الى بغداد.

يشير المؤرخون إلى أن كتاب التصريف تمت ترجمته إلى العبرية بعد صدوره بوقت قصير, و من ثم ترجم إلى اللغة الكاتلونية و هي لغة المقاطعة الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة الايبرية (زكور, 2006). إلا أن أول ترجمة للمقالة الثلاثين إلى اللغة اللاتينية تمت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي عن طريق جيرارد الكريموني (583 – 508هجرية/ 1114 – 1187 ميلادية), و منها انتشر الكتاب بين الأطباء الغربيين (كعدان, 1999, ص 29). الجدير بالذكر أن جيرارد الكريموني مترجم إيطالي يعود الفضل لترجماته العديدة إلى نقل المورث الأندلسي إلى الغرب و في علوم متنوعة و خاصة علوم الفلك و الطب, حيث إنه عاش و استقر و مات في طليطلية. و يضيف الدكتور كعدان (1999, ص 23) أن التأثر الفرنسي بالكتاب حدث خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر نتيجة هجرة الأطباء الايطاليين من موطنهم بسبب الفتن التي نشبت بين الطوائف و من ثم لجؤوا الى فرنسا حاملين معهم نسخاً

من الكتاب الذي أحدث ثورة للطب هناك. و يشار بالتحديد هنا إلى أحد أطباء مدرسة سالرينو و يدعى روجيه دي بارم, من ثم ليتبعه عدد آخر من الأطباء إلى فرنسا منهم برونو دي كالبر ولانفرانك ، وتادي ولوي دي بيز وسلفيستر دي بيوستي وأرمان الكريموني وآخرون غيرهم. و من هنا نفهم عبارة لانفرانك الذي وصل فرنسا حوالي عام 1290م حيث قال :" إن جل الجراحين الفرنسيين كانوا أغبياء وملحدين لا يكادون يعرفون لغتهم، وكانوا مجرد خدمة، وقد بلغ بهم الجهل بحيث يتعذر العثور على جراح عقلاني بينهم"(كعدان, b1999, ص 24).

يصعب حصر المخطوطات الموجودة في العالم لكتاب التصريف فهي كثيرة و تتنوع بحسب كمال محتواها أي من حيث تضمنها للمقالات الثلاثين كلها, إلا أن الدكتور كعدان(1999, ص 25) قدم تفنيداً وافياً لعدد المخطوطات المتوفرة و هي مصنفة على ثلاثة و عشرين موقعاً, شملت مكتبات في تركيا و سوريا و المغرب و الهند و إنكلترا و اسبانيا و هولندا و باريس و أذربيجان و النمسا و المانيا. و في تحيق الدكتور الناصر و الدكتور التويجري 1993 ,ص 32(أشار إلى أن المخطوط الهندي الخاص بالمكتبة الشرقية في بانكي يور في بتنا من أفضل النسخ التي تحوي جميع المقالات, و هي بصورة جيدة و بألوان منمقة, و يعود تاريخ نسخها إلى العام 584 هجرية. بالإضافة الى المخطوط التركي لمجموعة بشير آغا تحت رقم 502 بالمكتبة السليمانية, وهي أيضاً تحوي جميع المقالات و يعود تاريخ نسخها للعام 902 هجرية. إلا أن المقالة الثلاثون تبقى بلا منازع حائزة على انتشار منقطع النظير نظراً لتفردها في عصرها و ما تلاها من القرون من حيث المحتوى الهائل من المعلومات التي كانت تعتبر نقلة نوعية في مجال العلوم الطبية.

ب- كتاب علم الفلاحة: ظهر هذا الكتاب للعلن مع بداية القرن الواحد و العشرين نتيجة كشف بعض المخطوطات التابعة لعائلة فيفون الجزائرية العريقة و بخط ناسخها الشيخ الففون محمد بن الحسن. يقع المخطوط في ست و عشرين ورقة, و في كل صفحة ثلاثة وعشرون سطراً و كل سطر على اثنتي عشرة كلمة مع بعض الأوراق الناقصة. تتفرد المخطوطة أيضاً بحجم الاقتباسات التي لجأ اليها الزهراوي في مبحثه عن علم الفلاحة, بالإشارة إلى كتب سبقته و التي لم تكن قد وصلتنا قط لمؤلفين يونانيين كأنطليوس و فليون الفريطي و أقليمون. حوت المخطوطة معلومات شاملة في علم الفلاحة و الزراعة مثل اختبار نوع الأرض و تهيئتها و البذور ووقت الزراعة و نوع الأسمدة و المياه مع طرق حفظ الزروع و غيرها من المواضيع (شريف الانصاري, 2017).

و تكمن أهمية المخطوط لكونه يكشف جانباً مميزاً من شخصية الزهراوي كعالم متعدد المشارب و الأبحاث, و هو يدلل إلى ما ذهبت إليه ورقتنا هذه, أي أن ما وصلنا من علوم الزهراوي إلا القليل. بالإضافة إلى ذلك يمكن ربط نبوغ الزهراوي في علم الفلاحة بطريقة غير مباشرة من نبوغ تلاميذه في هذا المجال. و هم إن قلوا بما أنجدتنا به كتب التراجم, لكن تدل بشكل واضح إلى براعتهم في هذا العلم و الذي بدا جلياً من سيرتهم, و نقصد هنا الوزير أبو المطرف الذي ألف في الفلاحة و الطب و نقل أنه تولى غرس جنة المأمون بن ذي النون بطليطلية.

تساؤل تاريخي:

إن هذه الدراسة انطلاقاً من الحرص على الإحاطة بكل ما يخص شخصية أبي القاسم الزهراوي, تعيد طرح نفس التساؤل الذي طرحه الدكتور عبد العظيم الديب (2012, ص 199) في كتابه حول ماهية السبب وراء عدم شيوع ذكر الزهراوي و ذياع صيته في عصره, معتبراً هذه النقطة مثاراً للتساؤل والدهشة, علماً ان الاندلس شهدت ثورة فكرية متقدمة مستفيدة من رخاء اقتصادي و سياسي و اجتماعي تم توضيحه سابقاً, جعلت الكتابة والتأريخ موضوعاً شائعاً, شاملةً توثيق الأشخاص و الأحداث. و راحت كتب التراجم تؤرخ للمراحل الزمنية المتلاحقة و من دون استثناء و بتسلسل زمني جميل بحيث لا تجد منقطعاً لأخبار الناس إلا و قد تم تدوينه. و في ما يخص

حقبة الزهراوي فإن ما احتوته كتب التراجم لا تتعدى كونها نثرات عن سيرة هذا الرجل, و لا ترقى للقدر الذي توسطه بين فحول الطب المسلمين كابن سينا و ابن رشد و الرازي.

لتوضيح هذه النقطة لا بد أن نذكر هنا كتاب تاريخ علماء الاندلس (ابن الفرضي, 1989) الذي أرخ حتى 403 هجرية, و التي هي سنة وفاة مؤلف الكتاب من دون ذكر للزهراوي, أيضاً لم نجد ذكراً له في كتاب ابن جلجل(1955) الذي ألفه 377 هجرية, و يمكن أن يكون مرد ذلك صغر عمر الزهراوي و عدم شيوع اسمه ساعة تأليف الكتاب (السباعي, 1995). أما ابن بشكوال المتوفى 587 هجرية صاحب كتاب الصلة (1989) مؤرخاً ما بعد 403 هجرية (متمماً كتاب ابن الفرضي) فقد اقتبس بسطورات قليلات مما ذكره الحميدي (2008) صاحب جذوة المقتبس و هو الذي ألفه بعد انتقاله إلى بغداد و هو بدوره ناقل لما ذكره ابن حزم (ابن حزم الأندلسي القرطبي, 1987) في رسائله و الذي يعتبر الوحيد ممن عاصروا الزهراوي و كتبوا عنه. و عليه فإن هذه الدراسة ترتاح لما ذهب إليه الدكتور الديب (2012) , الذي ارتأى أن سر ذلك يعزى إلى اقتحام الزهراوي علم الجراحة و الذي رفعه كفرع مستقل من علوم الطب, و هو الذي ارتاضه و رأى أن لا بد للطبيب أن يختبره و يدرسه و يتقنه, و هو على خلاف ما شاع في تلك الحقبة من نأي الأطباء عن ممارسته, لا بل كانوا يستنكرونه و يرونه مقززاً محتقراً, و هم الذين كانوا يوصونه إلى الممرضين, أما بين العامة فقد كان بيد الحجامة و الحلاقين. في حين أن الزهراوي غمس يديه بالدم و القيح و الصديد, و ارتأى أن مداواة آلام المرضى أسمى و أجل قدراً. هنا لا بد ان ننوه الى المثال الذي ساقه الدكتور الديب تاكيداً على النظرة المتدنية للعمل باليد و التي استمرت الى مرحلة متأخرة من العصر الإسلامي مفادها مخطوطة مراسلات خاصة بفترة الخليفة الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن بن الناصر محمد بن قلاوون المتوفى 1361 ميلادية, الذي يوصي فيها بمبلغ مئة و عشرين درهم لكل طبيب, بينما يصرف أربعون درهماً لجراح يرافقهما في أعمال التطبيب, و عليه فإن هذه النظرة للجراحين بقيت سارية إلى ما بعد الزهراوي بأربعة قرون, و بقي الجراحون يتقاضون نسبة أقل بكثير ما يتلقاه الطبيب (الديب, 2012, ص 106).

سبب آخر نطرحه للنقاش كأحد الأسباب المتوقعة لإسقاط الزهراوي من كتب التراجم و مردها عقائدي بحت. حيث أن تفنيد الرأي الشرعي في موضوع إباحة تشريح الجثث البشرية يضعان أمام رأيين متناقضين و متباعدين في النسق الزمني, فالرأي الأول يأبى جواز التشريح تحت أي ذريعة انطلاقاً من أن الإضرار بالنفس البشرية محرم كونها حية أو ميتة, و أن التشريح يندرج تحت الإضرار بالنفس و فيه انتهاك لحرمة الموت فعليه يكون منهياً قطعاً. القول الثاني يبيح التشريح من منطلق الضرورة والحاجة، و استدل أصحاب هذا القول بالقياس وبمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية المبنية على الفقهية و رعاية المصالح الراجحة. وهذا قول كثير من الهيئات والمجامع المعاصرة, أي مرجعيات جلها يعود للقرن العشرين. و هذه الفتوى أصدرتها المراجع كنتيجة للتطور السريع في شتى العلوم و أن التشبث بالرأي الأول فيه اضرار بمصلحة المسلمين (عرار, 2010). و عليه نستنتج أن العمل بالجراحة كان و حتى عهد قريب يشرك صاحبه في شبهة التشريح التي حرمت قطعاً, ناهيك أن التشريح نفسه مذموم و محتقر عرفاً. و هو ما أكده الدراسون المعاصرون من أن التشريح كان من الممارسات غير الشائعة خلال العصور الإسلامية و أن ممارسته كانت تتم سراً, ويستدلون على ذلك بأن بعض الأطباء المسلمين استطاعوا تقديم توصيفات دقيقة لبعض أجزاء الجسم البشري كالعين والقلب والكبد والرحم ، و خرجوا بآراء تخالف آراء كثير من الأطباء اليونانيين، وبينوا خطأهم في بعض ما ذهبوا إليه, و هي توصيفات لا بد أنه تمت معاينتها بالعين المجردة و بمباضع توغلت عميقاً في تشريح الأجساد (السرجاني, 2009, ص 57; كعدان, b1999, ص 34).

و عليه نبني استنتاجاً مفاده أن ممارسة التشريح كان من أشد العقبات التي واجهت ممارسي الجراحة و التي طالت حتى الجثث الحيوانية خلال فترة طويلة من الحكم الإسلامي, و بقيت العلوم التشريحية مرتكزة على ما ساقه جالينوس وغيرهم. أما كسر التعنت في هذا الرأي

فلوحظ متقدماً في النسق التاريخي مستندين على مقاربات ذكرها الأطباء المسلمون من قبيل "إنّ التشريح يكذب ما ذكر" أو "إنّ التشريح يبرهن كذا وكذا", مما يدل على أنهم قد شرّحوا بعض الجثث ولكن لم يتمكنوا على الأغلب من المجاهرة به. و أن الاستجراء على ما درج في تلك الحقبة بدأ يظهر في مرحلة لاحقة على يد بعض الاطباء كابن رشد المتوفى 1189 ميلادية و الذي قال : (إن معرفة الأعضاء بالتشريح تقرب من الله), و من تبعه كموفق الدين عبد اللطيف البغدادي المتوفى 1231ميلادية, وابن النفيس المتوفى 1288 ميلادية (كعدان, د.ت). و عليه, يمكن أن نرجح أن الزهراوي و ببصيرة فذة و إيمان راسخ ربما كان من الذين أرتاوا حكماً تخفيفياً للفتوى الشرعية ليبيح التشريح و ممارسته, حيث أنه لا شك بأن أبا القاسم كان من المتبحرين في العلوم التشريحية لمن سبقه من علماء اليونانيين و غيرهم, إلا أنه و بالإعتماد على الخبرة التشريحية الذاتية بين أخطاء ما نقل منها و صححها و أضاف إليها, أضف إلى قناعته بضرورة هذا العلم و التأكيد على دراسته كما بين في كتاباته. فهل كان انغماسه في هذا الممارسات سبباً لإهمال ذكره من قبل أطباء و ومؤرخي عصره؟ كلها تبقى تساؤلات في ظل الشح الذي طال الشخصية في كتب التراجم.

أهمية النتاج الفكري للزهراوي:

إن الموروث العلمي للزهراوي يمثل تركة عظيمة للبشرية وهي التي بدت جلية بالانتشار المنقطع النظير و التأثير العالي في الحضارة الإنسانية لفترة امتدت إلى أكثر من ستة قرون, و كانت كتاباته منطلقاً أساسياً اعتمد عليها من لحقه من العرب و العجم و على امتداد رقعة جغرافية كبيرة, من مسقط رأسه في الأندلس فأوربا فالشمال الافريقي و من ثم في الدولة الإسلامية قاطبة. و لا نهدف هنا الى تأصيل كل ما سردته كتاب التاريخ و المتخصصون في المجال الطبي, فهي موثقة و محفوظة بالأدبيات المتوفرة والتي تؤكد علو كعب الزهراوي و خاصة في علم الجراحة, و عليه فإن هذه الدراسة ارتأت تلخيصاً وافياً احتوت أهم ما تضمنته الأدبيات عن النتاج الفكري للزهراوي و التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1- إرساء منهج مهني سليم: إن أهم ما يميز نجاح و سمو العمل في أي مهنة مرتبط بالكم الأخلاقي المتبع خلال الممارسة و مدى التزام ممارسيه لمجموع المبادئ و الضوابط التي تُقوم العمل و تزكيه و ترفعه و خاصة عندما يتعلق الأمر بالنفس البشرية و معالجة عللها و أسقامها. كان هذا الخط جلياً واضحاً في كتابات الزهراوي و آرائه في إدارة المهنة و العمل فيها, على الرغم من جراءته للقيام بجراحات معقدة لم يسبقه إليها غيره, و هو إن أكد على شيء, إنما يدل على شغفه بمساعدة مرضاه و لكن مع ضوابط راسخة تدير العملية بأكملها. نذكر منها بعض النقاط :

- حرصه الشديد على أن الشروع في أي معالجة توجب الحرص على فعل ما يفيد المريض و يذهب ألمه فيقول (لا تشرع بعمل أي شيء إلا إذا كنت واثقاً على أنه سيعود على المريض بنتيجة طيبة). و من أقواله (الزمن هو أبلغ الأشياء مما يحتاج إليه في علاج الأمراض, بعد المعرفة الكاملة و حسن مساءلة العليل, و أبلغ من ذلك لزوم الطبيب العليل و ملاحظة أحواله) (زكور, 2006, ص 12).
- ترسيخ مهنة الجراحة: كان الزهراوي أول من صنف مهنة العمل باليد(الجراحة) كأحد فروع الطب التي وجب تفنيدها و دراسة موضوعاتها بعد أن كانت مشرذمة و مندرجة كملاحق تحت المعارف الطبية الأخرى(الحاج قاسم محمد, 1987, ص 106; الديب, 2012, ص 100) و كان من الدؤوبين على ترسيخها لتكون بيد أناس محترفين يجيدون العمل بمهنية و احترافية عالية عن طريق ممارستها درساً و ممارسة, مع تأكيده على إقصاء غير المحترفين بها كالحجامين و الحلاقين. ففي تلك الحقبة كان الأطباء يترفعون عن الجراحة و يكلونها إلى غيرهم, حتى ضعفت الحرفة فقال الزهراوي (رأيت أن أكمله لكم بهذه المقالة التي هي جزء

من العمل باليد, لأن العمل باليد مخسة في بلادنا, و في زماننا معدوم البتة حتى كان أن يندرس عمله و ينقطع أثره) (الشنقيطي, 1994, ص 55).

- أوردت أدبيات الطب عند الزهراوي ضرورة وجود امرأة قابلة في حال تطبيب النساء أو إجراء الجراحات لهم, مع أهمية تهذيب النفس و صونها خلال الممارسة فيقول (من كانت شهوته أقوى من هضمه و ساعدها, فإنه مسقام ولا ينفك من أمراض مختلفة و لاسيما إن كان قد طعن بالسن) (زكور , 2006).

- رسخ الزهراوي في كتاباته الطبية أهمية الممارسين للجراحة إلى احتراف و دراسة علم التشريح بشكل دقيق و مستفيض . و هو يرى أن الجهل بهذا الموضوع يوقع صاحبه في خطأ قتل الناس. و هو يوصي الأطباء بتجنب الانغماس بالجراحة بدون ترو أو حذر مهما كانت المغريات. و هو بالتأكيد يورد معضلة واجهت الممتهنين للطب الذين يأخذهم الغرور و يتجاهلون الإجراءات الأولية و يقفزون إلى الحل الجراحي الذي نبه الزهراوي إلى أن مخاطره قد تكون قاتلة من دون إمكانية لإنقاذ المرضى فيقول (و من أجل ذلك ينبغي أن يكون التحذير فيه أشد لان العمل في هذا الباب كثيراً ما يقع فيه الاستفراغ من الدم الذي تقدم به الحياة عند فتح عرق أو شق على ورم أو بط خراج أو علاج جراحة أو إخراج سهم أو شق على حصاة و نحو ذلك مما يصحب كلها الغرر و الخوف و يقع في أكثرها الموت, وأنا أوصيكم عن الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم فإنه قد يقع إليكم في هذه الصناعة صنوف من الناس بضروب من الأسقام فمنهم من قد ضجر بمرضه وهان عليه الموت لشدة ما يجد من سقمه وطول بليته بالمرض من التقرر ما يدل على الموت، ومنهم من يبذل لكم ماله ويغنيكم به رجاء الصحة ومرضه قتال، فلا ينبغي أن تساعدوا من أتاكم ممن هذه صفته البتة، وليكن حذركم أشد من رغبتكم وحرصكم، ولا تقدموا على شيء من ذلك إلا بعد علم يقين يصبح عندكم بما يصير إليه العاقبة المحمودة، واستعملوا في جميع علاج مرضاكم تقدمة المعرفة والإنذار بما تؤول إليه السلامة فإن لكم في ذلك عوناً على اكتساب الثناء والمجد والذكر والحمد " (كعدان, b1999, ص 37).

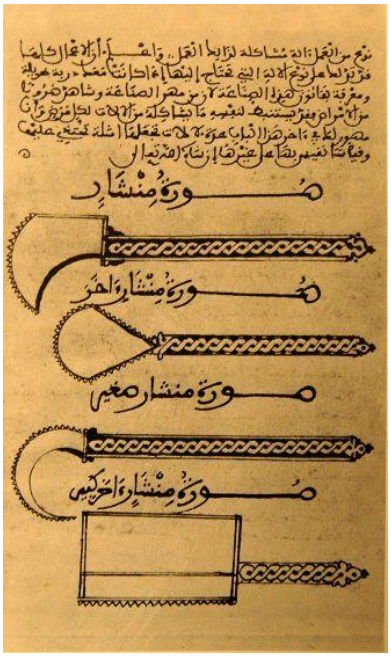

صورة توضيحية 3 بعض الادوات التي ابتدعها الزهراوي و ضمنها في كتاب التصريف

2- **الأدوات الجراحية:** أن أهم ما يميز كتاب التصريف توسعه و توصيفه إلى طيف عريض من الأدوات الجراحية التي ابتدعها الزهراوي بحنكة و حرفية عالية, صقلتها تجربة و ممارسة دقيقة, مع تفصيل أشكالها بعناية و بألوان مميزة ظهرت بشكل جلي في بعض النسخ الجيدة للمقالة الثلاثين . بلغ عدد هذه الأدوات أكثر من مائتي أداة تنوعت من أدوات الولادة و المحاقن العادية و الشرجية و ملاعق خفض اللسان و فحص الفم و المناظير المهبلية و مقصلة اللوزتين و كلاليب خلع الاسنان و مناشير العظام و المكاوي و المشارط و المناشير على اختلاف أنواعها. و الفريد أن الزهراوي عمد على رسمها و وصفها و طرق صنعها, مما ميزه عن غيره الذين اقتصروا على الوصف المجرد(الشنقيطي, 1994). و مما يميز أدوات الزهراوي أنها كانت نواة استنبطت و طورت عليه أدوات الجراحة, حتى لا تجد فروقاً جوهرية بتلك المستخدمة في عصرنا الحالي(الديب, 2012; السرجاني, 2009; خراط, 1984; كعدان, b1999). و يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض هذه الإدوات, ما اخترعه الزهراوي و اطلق عليها اسم الزراقة, و هي محقنة مصنوعة من خلائط معينة استخدمها في التطبيبات البولية و تطبيقات أخرى, و هي رغم بساطتها إلا أنها تبقى من أهم الأدوات المستخدمة في الطب حتى يومنا هذا (السرجاني, 2009; عبد الرزاق مسعود السعيد, 2001). و هناك أيضاً ما سماه الزهراوي باللولب, و هو ما يعرف اليوم بالمنظار المهبلي. بالإضافة الى اختراعه آلة رقيقة من الفضة أو النحاس تستخدم لإزاحة اللسان و تشخيص أمراض الحلق و لإجراء عمليات استئصال اللوزتين و التي تعرف اليوم بخافض اللسان. وآلة أخرى لاستخراج الزوائد اللحمية من الأنف و التي سماها الاسنانير, و أدوات لاستخراج الأجنة الميتة و غيرها الكثير التي لا يتسع المجال لذكرها (السرجاني, 2009; عبد الرزاق مسعود السعيد, 2001).

3- كان للزهراوي سبق عظيم في استخدام الطباعة و الكتابة على الأقراص الدوائية, و هو ما ظهر في مقالته الثامنة و العشرين, و فيه يصور صناعة القوالب و كتابتها بشكل مقلوب حتى يظهر بالشكل الصحيح حيث جاء في مقالته " صفة عمل القالب الذي تطبع فيه الأقراص: تأخذ لوحاً من بقس أو أبنوس أو حجراً من أحجار المسن أو عاجاً أو من أي عود شئت يكون صلباً املساً, يكون سعته ثلاث أصابع و طوله شبر و غلظه إصبعان, فيحرق تحريقاً حسناً, ثم ينشر على نصفين على طوله يكون غلظ كل لوح منها اصبعاً, ثم يفتح على الوجهين جميعاً بالضابط دوائر على قدر القرص و هيئته و ما يزيد من غلظه و رقته, قم بالحفر على كل وجه قدر غلظ نصف القرص, و ينقش في قعر أحد الجهتين اسم القرص الذي تريد صنعه إما ورداً او بنفسجاً أو غيرهما, و يكون النقش مقلوب المبانس على طبع القرص مستقيماً, و ان شئت ان تنقش في كل حفرة اسم القرص على انفراد لتطبع في واحد اجناسا كثيرة من الأقراص".

4- يعود الفضل للزهراوي الى إيجاد الوضعية الجراحية المسماة حالياً (ترينديلينبيرغ), و التي تقوم على رفع الحوض و الرجلين في عمليات النصف السفلي للمريض. مما يؤكد سبقه بثلاثمائة عام عن الجراح الألماني فريديريك ترينديليبنغ الذي نسبت إليه (السرجاني, 2009; عبد الرزاق مسعود السعيد, 2001), و الذي عده بعض المفكرين اغتصاباً علمياً بحق الزهراوي(أبو خليل, 2004), و يضاف إلى نفس السياق اختراعه الى وضعية الولادة الحوضية الذي سميت لاحقاً باسم الأستاذ الشتوتغري في أمراض النساء فالشر(Walcher).

5- يعتبر الزهراوي أول من قدم توصيفاً لمرض الناعور(الهيموفيليا) وأسماه علة الدم. حيث أورد تفنيداً ميسراً وافياً بين فيه ملاحظاته, و أظهر حرفية و أمانة علمية منقطعة النظير, انطلاقا من التسمية إلى اعترافه بضعف القرائن التي تساعده على تحديد ماهيته و أسبابه و علاجاته نظراً لحجم المعارف المتوفرة في ذاك الزمان. إلا أنه استطاع ببصيرة فذة ملاحظة انتشاره في إحدى القرى بعينها, و هو ما عزاه لكون المرض ينؤوا الى علة التوارث, وأنه ينتشر بين الرجال و أبناءهم من الذكور و هو بذلك قدم تفسيراً صحيحاً للمنشأ الوراثي لهذا المرض. أما من حيث العلاج, فاقترح الكي في منطقة النزيف للتحكم به نظراً لأنه غير قادر على السيطرة عليه)كعدان &عنجريني(2022 , .

6- يعد الزهراوي من أوائل من استخدموا الخيوط الجراحية و التي استخرجها من أمعاء القطط)السرجاني ;2009 ,الكشت & التواتي ;2023 ,عبد الرزاق مسعود السعيد(2001 , و مارس التخييط الداخلي بإبرتين و بخيط واحد مثبت فيهما كي لا تترك أثراً مرئيا للجراح و سماها إلمام الجروح تحت الأدمة (السرجاني ص 208).

7- الزهراوي يعتبر أول من نجح في إيقاف النزيف خلال العمليات عن طريق ربط الشرايين الكبيرة)الزركلي ;1986 ,السرجاني , 2009,ص 208;الكشت &التواتي ;2023 ,عبد الرزاق مسعود السعيد(2001 , و هو إبطال للإدعاء القائل بأنها من اكتشاف امبراطور باري عام 1552 ميلادية.

8- يعتبر الزهراوي أول من وصف عملية القسطرة و أوجد ادواتها)السرجاني ;2009 ,الكشت &التواتي ;2023 ,كعدان(1999b ,

9- يعتبر الزهراوي من ذوي الكعب العالي بما قدمه في مجال طب الأسنان و الفكين و التقويم بما خصصه لها من شروحات مطولة في كتابه التصريف و التي لا تتسع هذه الورقات لحصرها)الديب ;2012 ,السرجاني ;2009 ,الكشت &التواتي , 2023).

10- برز الزهراوي في تقديم بعض التوصيفات للجراحات التجميلية و أهمها موضوع التثدي عند الرجال (الديب, 2012; كعدان, b1999).

11- يعتبر الزهراوي ممن قاموا بعمليات جراحية لاستئصال السرطانات ناهيك عن استخدام الكي في كثير من العلاجات و قدم شروحات في سرطانات غير معروفة وقتها كسرطان العين و الرحم و الكلى (الديب, 2012).

12- أجرى الزهراوي عمليات تحويل مجرى البول إلى الشرج في الرجال و إلى المهبل في النساء(الديب, 2012).

13- عمل الزهراوي على تقديم شروحات وافية في مقالته الثامنة و العشرين عن الكيمياء المعدنية, و قدم توصيفات وافية لبعض المعادن و استخراج أملاحها و تأثيراتها في التطبيب (خراط, 1984, ص 209).

المراجع:

ابن أبي أصيبعة, أ. ب. ا. ب. خ. ب. ي. ا. (1965). عيون الأنباء في طبقات الأطباء)عدد الإصدار 1(.دار مكتبة الحياة – بيروت https://ketabonline.com/ar/books/5348 .

ابن الخطيب. (2003). أعمال الأعلام)حسن كسروي, تحقيق(. دار الكتب العلمية.

ابن الفرضي. (1989). تاريخ علماء الأندلس)ا. الايباري, تحقيق(. دار الكتاب المصري–دار الكتاب اللبناني.

ابن بشكوال. (1989). كتاب الصلة)ا. الإيباري, تحقيق; م. 1(.دار الكتاب المصري –دار الكتاب اللبناني.

ابن جلجل, أ. د. س. ب. ح. ا. (1955). طبقات الأطباء و الحكماء)ف. سيد, تحقيق(. مطبعة المعهد العلميالفرنسي للآثارالشرقية بالقاهرة.

ابن حزم الأندلسي القرطبي, أ. م. ع. ب. أ. ب. س. (1987). فضائل أهل الأندلس وذكر رجالها)م. 2(.المؤسسة العربية للدراسات والنشر https://ketabonline.com/ar/books/19204 .

ابن حوقل. (1873). المسالك و الممالك. مطبعة بريل.

ابن عذاري المراكشي. (1983). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)ج. س. ك. إ. ليفي بروفنسال, تحقيق; الطبعة الثالثة, م. 2(.دار الثقافة .

أبو خليل, ش. (2004). علماء الاندلس و ابداعاتهم المميزة و اثرها في النهضة الاوربية. دار الفكر.

الباباني, إ. ب. م. أ. ب. م. س. (1951). هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين)م. 1(.دار إحياء التراث العربي .

الحاج قاسم محمد, م. (1987). الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات. الدار السعودية للنشر و التوزيع.

الحميدي .(2008) .جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس)معروف، بشار عواد &م .ب .عواد ,تحقيق ;الطبعة الاولى .(دار الغرب الاسلامي.

الديب ,ع .ا .(2012) .أبو القاسم الزهراوي 3)ط ,م .(1دار دون للنشر.

الزركلي ,خ .ا .(1986) .الأعلام)الطبعة السابعة ,م .(2دار العلم للملايين.

السباعي ,ف .(1995) .عبدالرحمن بن الهيثم طليعة الأطباء النباتيين في الأندلس .مجمع اللغة العربي الأردني.33 ,

السرجاني ,ر .(2009) .قصة العلوم الطبية في الحضارة الاسلامية 1)ط .(مؤسسة اقرأ.

السرجاني ,ر .(2011) .قصة الاندلس من الفتح الى السقوط)الطبعة الاولى .(اقرأ.

الشريف الادريسي .(1988) .نزهة المشتاق في اختراق الآفاق :م المجلد الثاني .عالم الكتب .

الشنقيطي ,م .(1994) .أحكام الجراحة الطبية و الآثار المترتبة عليها 2)ط .(مكتبة الصحابة.

الكشت ,ص .ع .ا & .,التواتي ,ز .م .(2023) .ازدهار الطب في الأندلس وبعض أعلامه . أبوالقاسم الزهراوي أنموذجا .مجلة الاصالة , 1)السابع239/https://alasala.alandalus-libya.org.ly/ojs/index.php/aj/article/view).

المقري التلمساني .(1631) .نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب :م المجلد الاول .دار صادر.

الناصر ,ع .ا & .,التويجري ,ع .(1993) .الجراحة /للعلامة رائد الجراحة أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي 2)ط.(

حمارنة ,س .خ & .,سونيديكر ,غ : .(1963). A pharmaceutical view of Abulcasis al-Zahrāwī in Moorish Spain with special reference to the "Adhān".

خراط ,م .ي .(1984, أبريل .(25أبحاث المؤتمر السنوي الثامن لمعهد التراث بحلب .منشورات جامعة حلب.212-207 ,

دجاني ,ب .,عمري ,ف & .,قبيلات ,ن .(2013) .رسالة ابن حزم في فضائل الأندلس وذكر رجالها)م .(20

رامن ,ف.Albucasis_Abu al Qasim al Zahrawi. Rosen Publishing Group. (2006). .

زكور ,م .ي .(2006) .كتاب الزهراوي في الطب لعمل الجراحين .منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب.

شريف الانصاري .(2017) .أبو القاسم الزهراوي أحد رواد علم الزراعة والهندسة الوراثية .آفاق الثقافة والتراث.100(2017) ,

طرابلسي ,ن .ن .ا .(1990) .صناعة الطرب في تقدمات العرب .مطبعة الامريكان ببيروت . http://hdl.handle.net/20.500.11889/1827

عبد الرزاق مسعود السعيد ,ع .ا .(2001) .الزهراوي طبيب و جراح الفم و الاسنان و موسوعته الطبية 1)ط .(وزارة الثقافة الاردنية.

عرار, ر. (2010). أحكام التصرف بالجثة في الفقه الاسلامي. جامعة النجاح الوطنية.

عنان, م. ع. ا. (1997). دولة الاسلام في الأندلس (الطبعة الرابعة, م. 1). مكتبة الخانجي.

كعدان, ع. ا. (د.ت). تشريح وفيزيولوجيا عظام الإنسان في التراث الطبي العربي. الجمعية الدولية لتاريخ الطب الاسلامي. استرجع في 18 ديسمبر, 2023, من https://www.ishim.net/ankaadan6/boneanatomy.htm

كعدان, ع. ا. (1999a). الجراحة عند الزهراوي (ط. 1). دار القلم العربي.

كعدان, ع. ا. (1999b). الجراحة عند الزهراوي (م. 1). دار القلم العربي.

كعدان, ع. ا., & عنجريني, م. (2022). Who Discovered Hemophilia? Journal of the British Islamic Medical Association, 11.

نقابة السياحة بقرطبة. (2013). Albucasis (Doctor – the Father of Modern Surgery).

"A Study in the Biography of the Andalusian Surgeon Abu al-Qasim al-Zahrawi (Albucasis) and the Rooting of His Intellectual Heritage"

Researcher:

Basel Mustafa Hatem

Dubai- UAE

Abstract:

The personality of the Andalusian surgeon Abu al-Qasim al-Zahrawi continues to inspire all of humanity, and his famous work "Al-Tasrif li-man 'Ajiza 'an al-Tatleef" remains a timeless testimony across the ages, affirming the elevated status of Islamic civilization in general, and Andalusian civilization in particular, in enriching the intellectual output of humanity as a whole, and especially in the field of medical sciences. However, the personal biography of al-Zahrawi has been overlooked by the pens of biographers and historians in terms of detail and elaboration, even by those who lived during his time or documented the events of the fifth Hijri century. His biography remains scattered in a few lines, often accompanied by exaggeration and interpretation, and at times filled with unverified information. Moreover, it has provided an opportunity for some Western writers to distort the origins of the Arab personality, attributing his knowledge and innovations to others in the subsequent centuries.

Keywords: Abu al-Qasim al-Zahrawi, Medical Sciences in Andalusian Civilization, Umayyad Caliphate Era in Al-Andalus, City of Zahra.